بيـرم والمـــرأة

بقلم: د/ نبيلـة إبـراهيم

ربما لم يحفل أحد من المبدعين لمحدثين، بتقديم صور ونماذج شتى للمرأة الشعبية القاهرية، كما فعل بيرم التونسى.

فالمرأة القاهرية، تشغل بأنماط سلوكها ومناحى تفيكرها، بالإضافة إلى لغة الحياة اليومية المتداولة الخاصة بها، تشغل حيزاً كبيراً فى أزجاله.

والدارس لأزجال بيرم بصفة عامة، ينبغى عليه أن يولى القدر الخاص من أزجاله فى المرأة، من الاهتمام ما يوليه لأزجاله السياسية، التى رصدت تاريخ مصر وأحداثها، فى حقبة طويلة من الزمن الحديث.

وإذا كان الفنان ينطلق دائماً من وجهة نظر خاصة فى أعماله، مهما تنوعت موضوعاتها، فإن البحث فى أزجال بيرم التونسى، لابد أن يقودنا إلى أن اهتمامه بالمرأة، لم يكن مصدره الإعجاب بها، أو النقد لسلوكها، وأنماط تفكيرها فى حد ذاته، بل إن موقفه منها واهتمامه بتقديم صور شتى من حياتها، لم يكن لينفصل قط عن اهتماماته السياسية، وعن مواقفه الوطنية الجريئة، التى أدت به إلى أن يُنْفَى، وأن يعيش حياة فيها الكثير من المعاناة وشظف العيش.

ونحاول الآن أن نكشف وجهة نظر بيرم التونسى، فى أزجاله التى تعد فى جوهرها، نقداً صارخاً للحياة المصرية من كل جوانبها، وذلك من خلال أزجاله المتنوعة فى المرأة.

ولنبدأ بزجله فى بنت البلد، ويتوزع هذا الزجل بين الإعجاب ببنت البلد إعجاباً يصل إلى حد الوله، والنقد الساخر اللاذع الذى كثيراً ما يثير الضحك.

وعندما يعبر بيرم التونسى عن إعجابه ببنت البلد، يتصاعد بهذا الإعجاب، من خلال المقارنة بينها وبين أجمل نساء العالم، فإذا بنت البلد تجبنهن جميعاً. يقول:

أحب بنت البلد من فرط خفتها
هليود على بدعها ما تجيبش عصبتها
ولا بنات لندرة تتلف لفتها
أدى اللى جاب لى البلا آدى اللى هابلنى

إن بيرم هنا يقارن بين بنت البلد من ناحية، ونساء هليود، ويعنى بهم الممثلات الفاتنات، ونساء لندن كذلك من ناحية أخرى، وهنا نقف لنتساءل: لماذا لم يعقد بيرم المقارنة بين نساء هوليود ولندن، ونساء مصر من الطبقة الراقية، حيث إن المقارنة بين نساء هوليود ولندن، وبنت البلد.. ليست عادلة.

إننا إذا أمعنا النظر فى أبيات الزجل، فإننا نجد أن بيرم يحدد أشياء بعينها فى بنت البلد، وهى التى يتخذها موضعاً للمقارنة، وهى خفة الدم، وطريقة حبكتها لعصبة رأسها، وطريقة لفها لملايتها، وهى كلها أشياء اشتهرت بها بنت البلد، ولا يمكن أن تكون موضوع مقارنة مع نساء هوليود ولندن.

فما الذى حدا ببيرم إلى هذه المقارنة، إذن، من الواضح أن بيرم لم يكن يهدف إلى مقارنة جمال بجمال، إذ لم ترد أية إشارة إلى ملامح الجمال عن نساء هوليود ولندن، إنما تقول شطرات الزجل، إن نساء هوليود ونساء لندن، على الرغم مما عرف عنهن من جمال وفتنة، فإنهن لا يتفوقن قط على بنت البلد فى خفة دمها، كما أنهن لا يستطعن، على الرغم من تفانينهن فى إبراز

جمالهن، أن يحبكن عصبة الرأس أو الالتفاف بالملاية اللف، على نحو ما تفعل بنت البلد.

فبيرم إذن يتعمد إبراز ثلاثة أشياء بعينها، خاصة ببنت البلد دون غيرها، وهو يبدى التحيز الشديد لهذه الخصال، لأنها تعد جزءاً من هوية شعب مصر، وذلك فى مقابل المرأة الأوروبية أو الأمريكية، التى تعد من ناحية أخرى رمزاً للاستعمار، الذى يهدف إلى أن يفقد الشعب المصرى، والشعوب العربية قاطبة، هويتها.. ولكن طالما أن امرأة هوليود ولندن، لن تستطيعا أن تبلغا مبلغ خفة دم بنت البلد، أو تعجز عن أن تجيدا عصبتها، أو تتلف لفتها بالملاية، فهى إذن لن تستطيعا أن تصمسا هوية بنت البلد.. أى هوية مصر.

ومرة أخرى يعقد بيرم التونسى المقارنة بين بنت البلد، ونساء أخريات فى زجل آخر، وفى هذه المرة يصف مشهداً متكاملاً، يأسر بداخله حركة بنت البلد القوية، التى تؤكد وجودها، الذى يهزم أمامه، وجود أى امرأة أخرى.. يقول:

فى الأتوبيس، قعدت قصادى مهندمه
لونها ارتوى من الشفق خمر السما
وشفتين مع العينين متبسمه
وحاجبين من غير قلم مقلمه
عنهم عمى سقراط يزيد ايده عمى
ما شفت لك يا آنسه
شبيهه فى كل النسا
نطت وحطت جنبها فلقة قمر
قوام من القوقاز وأنف من مضر

وجـــيـــد نفـــرتيـــتى ولكن ده حـــجـــر

وخـــصـــر من سنبـــاط جـعـــان جـــوع الغـجـــر

تـقـــــول يـا ربـى دى مـــــلاك والا بـشـــــر

لـيـــــه يـالـلى كـنـتى كـــــويـســـــه

بـقـــــيـــــتى زى الخـنـفـــــســـــه

طـلـعـت عـلـيـنـا بـعـــــد دول بـنـت الـبـلـد

داست عـلـى أهـل الـبـــــريـمـــــو يـا ولـد

والـتـــرسـو كـلـه انشـــال مـعـــاها وانهـــبـد

وكـل راكـــبـــه وجـــهـت نـظرة حـــســـد

والأولة والثـــانيـــة راحـــوا فى الهـــدد

ربـك جـــاعـلـهـــا مـــدرســـه

نـتـلـقى فـــيـــهـــا الـهـنـدســـه

فبنت البلد عالم له تفاصيله المحكمة المنسجمة بعضها مع بعض، عالم يفوح منه عبير شديد الخصوصية.

ولهذا فقد تبرز أمام الرائى، امرأة عصرية تتمتع بجمال ربانى، وأخرى ذات جمال مخلط، ولكنها أخذت أبدع الملامح من كل طرف، فقوامها من القوقاز، ووجنتها من التتار، وأنفها من مضر، وجيدها من نفرتيتى، وخصرها من خصور غوازى سنباط اللاتى، اشتهرن بذلك.

وعلى الرغم من دقة الصنعة فى كل شىء، فإنها فى النهاية تبدو صنعة بلا روح وبلا عبير مميز، حتى إذا ما برزت بنت البلد، توارى هذان النمطان

وتركزت الأنظار على بنت البلد.

ولنتأمل كيف يصنع بيرم المشهد، ويحصره فى إطار زجله، الذى ينبض بلغته الحية، ونغمة الزجل الخفيف السحرى، والواقع أن المشهد لم يخترعه بيرم، ولكنه التقطه من بين مشاهد الحياة اليومية، وعلى الرغم من أن هذا المشهد جزئى ومحدود، فهو يمثل فى تكوينه بنية الحياة القاهرية فى عصر بيرم التونسى.

فالرجل الجالس فى الترام، كأنه جالس فى قلب مصر، التى فتحت ذراعيها، لكى تستقبل كل ما هو جديد، دون أن تفقد أصالتها، وهو يركز بصره على الصاعد والهابط، فكل صاعد وهابط، يعد نموذجاً فى قلب مصر.

ولكن تركيزه يشتد، بطبيعة الحال، حول نماذج المرأة التى تدخل عالم الترام، وهو يسلى نفسه بالمقارنة بين هذه النماذج، وهاله نمطان يصعب المقارنة بينهما، ولو لم تصعد بنت البلد الترام، لظل الجالس المتفحص، متعلقاً بهذين النموذجين المبهرين.

ولكن فجأة، يحدث التحول والتصاعد فى الانبهار، عندما تدب بنت البلد بقدمها وهى تصعد الترام، وعندئذ تنشط عملية المقارنة بين النموذجين السابقين من ناحية، ونموذج بنت البلد، من ناحية أخرى.

إن النموذجين السابقين، أشبه بالصورة الصامتة التى يعجب بها الإنسان، حتى إذا تركها انتهت العلاقة بينه وبينها.

أما بنت البلد، فهى ليست صورة، بل حياة تدب ناشرة معها عبير مصر، عبير الأصالة والتاريخ، ولهذا فقد داست على البريمو الذى يمثل الطبقة، التى تعيش على هامش الحياة الشعبية، هذا فضلاً عن أنه يشير إلى الطبقة الغنية المرفهة، ولهذا فقد داست بنت البلد، كما يدوس بيرم التونسى، على أهل البريمو بعناد وإصرار وثقة، ولما فعلت هذا نهض معها الترسو، وهو المقابل

للبريمو، والذى يشير إلى الطبقة الشعبية الخالصة.

والواقع أن كلمة «ينهض» تضعف كلية أمام تعبير بيرم التونسى، بل التعبير الشعبى، الذى انتقاه بيرم فى هذا المقام.. وهو: انشال معاها وانهبد.

وهكذا أصبحت بنت البلد، سيدة الموقف فى الترام، وهى فى هذه الحالة، ليست مجرد امرأة، تسلب العيون ببرقعها وطريقة حبكة ملاءتها، بل هى مدرسة تعلم الهندسة، تماماً كما أن مصر مدرسة، تعلم فنون الهندسة، التى رسخت فى حضارتها العريقة.

إن بنت البلد، شأنها شأن ابن البلد، تُنسب لبلدها فهى مثل الرقص البلدى، والقهوة البلدى، والمأكولات البلدية، والعيش البلدى، ولا عجب أن يظل بيرم متعلقاً بها وبابن البلد، مهما شرق أو غرب، يقول:

وأقول لكم بصراحه ... اللي في زماننا قليله

عشرين سنه في السياحه ... وأشوف مناظر جميله

ما شفت يا قلبي راحه ... في دي السنين الطويله

إلا اما شفت البراقع ... والطرحه والجلابيه

ويظل بيرم متعلقاً بالمرأة، حتى تصبح رمزاً جاهزاً فى شعره السياسى، فهى تصبح مصر أو سوريا اللتين أرهقهما المستعمر، مع غيرهما من البلاد العربية.. فهو يقول عن مصر:

مالك شهقتي على العالي ... ياللي مالك زند

مالك يا وقفه طوالي ... في طريق الهند

يا مسلمة المسيو المالي ... يفقرك بالعند

والقطن ينضاف عالغله ... جوا بيت المال

لقد كان هم المستعمر، أن يضاعف مكاسبه المادية، من البلاد المستعمرة، فمصر هى الطريق إلى الهند، وهى مع الهند يمثلان مكسباً مادياً وكنزاً لا يفنى، فمنهما كانت تسلب الثروات، ليمتلئ بها بيت المال البريطانى، الذى حل محل بيت مال الخلافة الإسلامية فى أوج عظمتها، عندما كانت تجمع فيه ما يجبى من ثروات البلاد الإسلامية، أما عن سوريا فهو يمثلها امرأة يغازلها وينعى عليها فقدانها لجمالها. يقول:

يا أم الضفاير يا شاميه ... يا جانطي خالص يا طريه
خوخك بكام ردي عليَّ ... وكلميني عن الرمان
يامـا في أيام أفراحك ... شبعنا من عض في تفاحك
أيام ما كان سنك ضاحك ... ومحوطاه بزبيب لبناني
خاتم الخطوبه في صباعك ... جاب هو لك المسيو بتاعك
حطى دراعه في دراعك ... وخشي وياه البستان
يا حلوه فين ورد خدودك ... وفين معاصمك ونهودك
يعني الخواجه نحل عودك ... وصبحك جالك عدمان
والخلخال اللي جالك مطلي ... على سوم أصلي
لا يخلي رِجْلك ولا رجلى ... تعرف تندار

وهكذا، يتلاعب بيرم الفنان، بالاستعارات والرموز، فهى من ناحية تشير إلى الفاكهة التى اشتهرت بها سوريا: الخوخ والرمان والتفاح والزبيب، وهى فى الوقت نفسه، تشير إلى جمال المرأة، الذى يغرى الرجل بأكله وقضمه.

ولقد أغرت سوريا المستعمر فخطبها ليتزوج بها، ثم أهملها بعد أن

امتص حلاوتها، وتركها عوداً ناحلاً، ولهذا فإن الخلخال المطلى الذى أهداه لها وفقاً للعادة الشعبية، لا يمكن أن تكون وظيفته الزينة، بل تصبح وظيفته القيد، الذى يحول دون حركتها، وحركة كل من يهواها ويعشقها، وعلى رأسهم بيرم التونسى.

على أنه لم يكن فى وسع بيرم، الذى سخر قلمه للسخرية، من كل ما لا يرضى عنه فى المجتمع المصرى، والحياة السياسية فى مصر، أن يظل يحيا فى المثال منشغلاً بسحر بنت البلد، بحيث يعميه هذا السحر، عن إدراك سلبيات المرأة بصفة عامة، والحق أن ولهه ببنت البلد من ناحية، ونقده الساخر من نواحى سلوكها المتخلف من ناحية أخرى، يرجعان معاً، كما قلنا، إلى مشاغل نفسية موحدة، هى عشقه لوطنه مصر، وعشق كل ما هو أصيل، وخوفه الشديد على مستقبله، إزاء مواجهته للمتغيرات السريعة المتلاحقة، التى تقتحم حياته دون هوادة.

وعندئذ، يهبط بيرم من عالم المثال، إلى عالم الواقع، ليرصد كل العيوب التى يراها فى عالم المرأة، ويراها عائقاً، دون نهضة المجتمع، ونمو الحياة.

ولهذا فهو يعود ليقارن بينها وبين المرأة الأوروبية، لا ليرفعها على المرأة الأوروبية فى هذه المرة، بل ليدينها لتمسكها ببعض العادات المتخلفة، يقول بصدد هذه المقارنة موجهاً كلامه إلى الأوروبية:

ومشيتك في السكة غزال ... وقيافتك عال

كدا سَلْتْ مَلْتَ ما فيش خلخال ... وسخام ولطام

ولا الإيدين فيها غوايش ... ولا شيء حايش

كدا لَهْطْ مَهْطْ فطير يابس ... أشمط وأنام

من اللي تنقش دانتلا ... م البفته الخام
مفروده دايماً لا تبوز ... ولا تتأوز
عازبه ولما بتتجوز ... تعمل له مقام

على الرغم من أن بيرم، لم يتردد فى لكشف عن المساوئ الأخلاقية، التى تنتقص من قيمة المرأة الشعبية، لم يستطع أن يخفى سيطرة جمالها وسحرها عليه يقول:

رأيت قوام الغندوره ... والعيون دي عيون
لو شاف لها المجنون صوره ... يعقل المجنون
ولو تبان المستوره ... تلقى أخلاق دون
والغجر في النسوان غطي ... عالجمال وطغاه
الحسن جنه لو يجمع ... الأدب ويّاه
ضاقت مذاهبي وزاد غلبي ... بس اهرب فين
واللي انت تهواه يا قلبي ... لك أجيبه منين
وانت ان لقيت المتربي ... ما تلاقيش الزين
واللي كمل حسنه لوحده ... ربنا في علاه
الحسن جنه لو يجمع ... الأدب ويّاه

بيرم إذن يضع يده على الداء، ويقترح الدواء، فإذا كانت المرأة الشعبية يتوفر لديها الجمال.. وينقصها لأدب، فهى تصبح كاملة المعنى والشكل، لو أنها زودت نفسها بما ينقصها.. وهو الأدب.

والمرأة الشعبية لا تعرف النظام فى حياتها، والدليل على ذلك، أن بيتها

يمثل نموذجاً صارخاً للفوضى، ويقدم بيرم التونسى صورة حية ساخرة لهذه الفوضى، ملقياً اللوم على المرأة، فى أنها السبب فى تسريب عدوى الفوضى، إلى كل مظهر من مظاهر حياتنا.. يقول:

تقول فى بيتنا أو فى بيتكم هى هى المشكلهْ
ستات حاجتها كلها عايشه وعيشه هرجله
ستات عجايز أو صبايا فى بعضها متكتوله
خلو عقولنا زيهم متشوشه ومتبرجله
درج المعالق يتحشر فيه قطن طبى ومبشره
ووقة سكر على ضهر الدولاب متبعتره
وعلبة السكر يا عالم تتركن فوق صندره
فيها مسامير واسبرين وجوز شراب ومكحله
طول عمرنا فى الهم ده ونضح علينا الهم ده
كل المصالح والمتاجر فى البلد ماشيه كده
دقى على طارك وقولى ولا تخافيش يا معدده
الفوضى أصله الملطمه الفوضى أصل البهدله

المرأة إذن هى صانعة الفوضى، وهى القادرة على إبعادها عن حياتها، لو أنها وضعت السكر فى علبة السكر، ووضعت بعد ذلك كل شىء فى موضعه، إنها عندئذ توفر وقتها وتوفر مالها، مما يجعل له مردودا إيجابيا، على حياتها وحياة الزوج والأبناء.

وكما تستشرى الفوضى فى بيتها، تستشرى فى نمط تفكيرها، وطريقة

تكييف حياتها وفقاً لمتغيرات عصرها؛ فهى تريد كل جديد، مهما كلفها هذا وكلف زوجها من نفقات، ذلك لأنها تريد أن تتشبه بنساء الطبقة الراقية يقول:

وياريت بس الطبقه الراقيه طالعه فى دى المطلوع

إلا كمان أم سيد أحمد خشت فى الموضوع

لازم تلبس رخره النايلون نشا لله تموت من الجوع

ولا راجلها يخون العهده ثم يروح فى حديد

وكأن بيرم، كان يتنبأ مبكراً، بانقراض ظاهرة بنت البلد الأصلية، لأن بنت البلد فى نزوعها إلى التقليد، ألغت عصبتها، وطرحت عنها ملاءتها، وهما عنصرا الزى الشعبى، اللذان وسماها بميسم بنت البلد: التى تنتمى إلى بلدها، لا إلى أى بلد آخر.

والجهل، عنصر ثالث، ينتقص من قيمة المرأة، وهى تخفى هذا الجهل، وراء ستار الجدل والردح وعلو الصوت، بل يصل بها الجهل، إلى حد عدم التمييز بين الأشياء:

جاهله إذا اتفرجت فى جنينة الحيوان

وتقول على النمر قطه والوعول خرفان

وتقول على البنك سيما والبلوز فستان

لكن يصيبنى البكم لما تجادلنى

ويقف بيرم التونسى، بعد تعداد كل هذه العيوب الجوهرية ليتساءل: أيهما أصلح لمستقبل مصر: المرأة القديمة أو المرأة الجديدة؟

ونجده يرفض بطبيعة الحال، المرأة القديمة، التى وضع يده من قبل، على بواطن عيوبها، المعوقة لنهضة المجتمع:

المرأة لما تبقى قديمه مصيبتها تستغيذ بالله
في دماغها تنكسر بريمه ولا يدخل الصواب جواه
تعا شوفها لما تحشي كرونبه حواليها دستين مواعين
وتولع الوابور م اللمضة واللمضة م الوابور، يا معين!

ولكنه فى الوقت نفسه، يرفض المرأة الجديدة، لأنها امرأة مقلدة، لما هو وارد عليها، ولأنها تنزع إلى الشهرة، فتتمنى لو تحدثت عنها الصحف، وقد تكون المرأة فى هذه الحالة، متصفة بالعفة والفضيلة، ولكنها، للأسباب السابقة لا تعد هى المثال المرغوب فيه:

والمرأة لما تبقى جديده ع العفه والفضيله سلام
تصاويرها كل يوم في جريده تقراها أمة الإسلام
فساتينها كل موده شيطاني مجلوبه من بلاد الذوق
يا تعري نصها التحاتني يا تعري نصها اللي فوق

فماذا إذن عن المرأة التى تجمع بين القديم والجديد؟

إن بيرم يرفض هذا النموذج كذلك، على أساس أن هذا المزج، لم ينجح فى الوصول إلى تكوين موحد منسجم، لا يقبل الجديد قبولاً عشوائيّاً، بل يتدبره ويتأمله أولاً، ولا يأخذ منه، إلا ما يمكن أن ينسجم مع طبيعتنا وتراثنا وقيمنا، وإذا لم يحدث هذا، فإن هذا الجديد الطارئ، يمكن أن يحقق ما يهدف إليه المستعمر، من إشاعة الفوضى فى حياتنا.. ومحو تراثنا وقيمنا.

ويا عمي لما تبقى مراتي مخلوطه من قديم وجديد
حركاتها تتقلب لي زواتي وكلامها مألته وتعديد

ولكن، هل استطاع بيرم، بعد أن رفض كل هذه النماذج الثلاثة للمرأة بما فيها النموذج الوسط، هل استطاع أن يصل إلى نموذج يرضاه لصالح المجتمع؟

يبدو أن بيرم احتار فى أن يصل إلى هذا النموذج.

ربما لأن المرأة القاهرية الحديثة، لم تسعفه فى تقديم النموذج الأمثل، وإن كنا لا نتصور أن الحياة الجديدة فى مصر، كانت تعدم مثل هذا النموذج، وإن كان على قلة.

وعلى كل، فقد كان عقل بيرم وفكرة، متشبعاً بنموذج سئ للمرأة الحديثة، التى ارتمت فى أحضان الحياة الجديدة، بكل متغيراتها.. بحيث ضاعت فى خضمها.

لم يبق لبيرم، سوى أن يلوذ إلى النموذج القديم، لامرأة الطبقة المتوسطة، المحافظة على التقاليد، والآخذة من الجديد بنزر يسير.. وبكثير من الحيطة والتردد.

كنت أحسب الست جوهره فى صدف مكنون
يرخص لها كل غالى فى الوجود ويهون
وراح زمان الغزل والحرقه والأشواق
لما النسيم كان يعرى بس ربع الساق
أو تبتسم فى الفوال اللى فوالها راق
أو يسمع اللى انشبك ضحكه من الأعماق
تبات فحول الرجال ولكل واحد داء
دواه وصال الحبيب وازاى وامتى يكون؟
ولا كنت أحسب فى يوم الجوهره ح تضيع

والنصابين شغلوها واسطه فى المشاريع
والمفلسين علموها تشترى وتبيع
والنار فى قلب الغيور بتقطعه تقطيع
من دا الزمان المودرن الأرعن المجنون

وهكذا تجول بيرم فى عالم المرأة، ورصده رصداً دقيقاً متقناً، وكانت نبرته فى التعبير عن هذا العالم المتنوع العجيب، تتوزع بين الوله الذى يحمله على جناحيه، فيبدع فى التعبير عن صنعة الإله العجيبة.. كما يقول:

لك صنعه في العين والحاجب بها تتعاجب
وتقول وجود الله واجب مين به يكفر
ويا أم نص ملاية حرير والنص يطير
على الكتاف أنا عقلي صغير غطي المرمر

وبين اليأس القائم، الذى يحيله إلى سخرية لاذعة مضحكة، حتى استسلم فى نهاية الأمر، إلى أن يبعث صرخة الحنين الشديد للمرأة، التى تجمع بين.. العفة الصادقة.. والتربية الصادقة.. والجمال الصادق.

وقد يكون كل هذا متمثلاً فى.. بنت البلد.

وقد يكون متمثلاً فى.. امرأة الطبقة الوسطى.

وقد يكون متمثلاً فى امرأة.. الطبقة الراقية.

ولكنه.. هو المطلوب.. على كل المستويات.

■■■